التواصل عند المتصوفة:

تجليات وإشكالات

د. خالد التوزاني (المغرب)

تميّز التواصل عند المتصوفة بسمات فريدة من أبرزها خرق مألوف التواصل البشري المتعارف عليه بين الناس، حيث يأخذ التواصل أشكالا غريبة، مثل: التواصل الروحي بين متباعدين في المكان أو الزمان، مستمدا هذا النمط من التواصل مشروعيته من اللقاء الروحي أو الحسي بين الصوفية والخضر عليه السلام، وهو لقاء يمثل بؤرة التواصل الذي يصنع الولاية ويؤكدها فيرسخ المقدس وتتحول التجربة الصوفية إلى حالة روحية يتصل فيها العبد بربه اتصال المتناهي باللامتناهي.

ولعل من أبرز سمات التواصل الصوفي هو التعبير بالإشارة؛ عندما يتحول الكلام إلى صمت، والبيان إلى إخفاء، والوضوح إلى غموض، والشرح إلى تعقيد، والكشف إلى حجب، والبناء إلى هدم، فيصبح التنبيه بالإشارة لا البوح بالعبارة منهجا في التواصل، كما قال ابن عربي:

نَبِّهْ على السِّرِ ولا تُفْشِه فالبوحُ بالسِّرِ له مَقْت[1]

كما يغدو علم الخرق بوابة لتواصل غير مألوف مقابل علم الورق الذي جرى عليه تواصل الخلق، فقد زعم القوم أن كتاباتهم هي من وحي الإلهام وليس من تأليفهم الخاص أو إبداع خيالهم، وإنما ينقلون ما يرد عليهم من الإشارات والعبارات التي لا يفقه معناها إلا اللبيب من المريدين أو مَنْ كان له ذوق ومعرفة باصطلاحات القوم، يقول أحدهم:

تسربلتُ للحرب ثوب الغَرَقْ وهِمْتُ البِلاَدَ لوجد القَلَقْ

فإذا خاطبوني بعِلْمِ الوَرَقْ بَرزتُ عليهم بعِلْمِ الخَرَقْ[2]

[1] **رسائل ابن عربي**، ابن عربي، محي الدين مُحَّد بن علي بن مُحَّد، تق. وتح: سعيد عبد الفتاح، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، د.ط، 2001، ص:339.

[2] يوسف زيدان، **عبد الكريم الجيلي: فيلسوف الصوفية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط: 1، 1988، ص: 21.

كيف يؤسس القوم لتواصل فريد؟

قد تصبح اللغة عند الصوفية عائقا في التواصل وعامل ستر يُخفي ولا يوضح ، حيث تصبح الإشارة وسيلة للتواصل ونمطا للحوار ، وفي هذا المعنى يقول صاحب كتاب "الجفر":

خذوا بالإِشَارَة فالإشارةُ للقلبِ   ولِلرُّوحِ في حال التَّجَرُّدِ مِن ترب

وَخَلِّ العبارة أو كُنهها فإنها   تَسْتُرُ أَسْرَارًا وتُخْفِي ضِيَا الغَيْب[1]

فالبناء الرمزي للغة الصوفية يمكن أن يشكل حاجزا بين القارئ والنص الصوفي ، فينتج عن ذلك تأويلات قد تؤدي إلى كثير من التشوهات التي تلحق فهم المتلقي للنص ، فتشوه الرؤية الفكرية للتصوف ككل ، ولتجنب هذا الخطر ، أخذ بعض الصوفية زمام المبادرة فكتبوا شروحا لبعض كتبهم التي استعصت على الفهم[2] ، فالخطاب الصوفي يسير في اتجاه عمودي (الصوفي- الله) ، ولذلك فهو يتعارض – إن لم نقل يتناقض- مع كل الخطابات الأخرى ، وخطاب مثل هذا أوقع الآخر غير الصوفي في إشكالية الفهم ، فعلى الرغم من استعمال الصوفي اللغة ذاتها التي يستعملها الأديب واللغوي والفقيه والعالم.. ، إلا أنه يعمد إلى تحويل دلالاتها وشحنها بالإشارات والرموز المكثفة ، ولعل ذلك ما دفع بعض الباحثين للقول بـ"خلو الخطاب الصوفي من ميزة التواصل"[3] ، بحجة أن لغة الصوفي لغة مغايرة تتوافق مع مواجده الداخلية ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك ، عندما رأى أن الصوفي يرفض الآخر ، عبر اللجوء إلى المعرفة الباطنية الذوقية التي لا يفهمها غير الصوفية ، ولعل ذلك الاستنتاج أو الحكم لا يتجاوز الانطباع الشخصي لباحث يتعامل مع النسق الصوفي من خارجه ، لأن الكتابة ، أي كتابة لا يمكن أن تخلو من التواصل ، والسؤال الخاطئ لا يمكن أن يصل إلا لجواب خاطئ ، إذ الإشكال ليس في إثبات التواصل ، وإنما في معرفة أشكاله وتقنياته وغاياته ، أما وجوده فهو يولد مع النص ولا يغادره ، أما مسألة توافق لغة الصوفي مع مواجده الداخلية ، فهي نوع من التواصل مع الذات والحوار مع الآخر من خلال استحضار هموم الإنسان وانشغالاته الراهنة والآتية ، وعلى الرغم من تجاوز الكتابة الصوفية لمعايير الكتابة المألوفة ، إلا أن ذلك لا يعني أنها خطاب إبعادي وإقصائي ، فهي تُسَخَّر لخدمة السلوك الصوفي ، ومن ثم لا بد أن تستحضر المتلقي ، تغريه وتفتنه ، وتدهشه وتحيره ، فتصرّح وتلمح وتستر ، لتؤسس جماليات الانتقاء ، فتلك خصوصية التواصل في كتابةٍ أعلنت منذ الوهلة الأولى عن خرقها لمألوف الخطابات الأخرى.

[1] **الجفر** ، مُحَمَّد ماضي أبو العزائم ، دار الكتاب الصوفي- دار المدينة المنورة للطبع والنشر ، القاهرة ، ط: 3 ، 1990 ، ص: 4.

[2] من الأمثلة التي يمكن استحضارها في هذا السياق ، شرح ابن عربي لترجمان الأشواق.

[3] وذناني بودواد ، اللغة الصوفية عند جمال الغيطاني ، **حوليات التراث** ، ع: 6 ، 2006 ، ص: 21-22.

التواصل العجيب

يستمد الحديث عن جماليات التواصل العجيب في نصوص المتصوفة أهميته من ملاحظة منهجية مفادها أننا: "عندما نتحدث عن جمالية النص دون أن نتحدث عن التواصل نكون قد قتلنا النص"[1]، والنص الصوفي عموما يتجاوز وظيفة الإبلاغ إلى التأثير والتغيير، من خلال تقديم النموذج الصوفي، وخلق نوع من "المشاركة الوجدانية بين النموذج وبين القارئ"[2]، حيث تعوض الكتابة غياب اللقاء المباشر وتذيب المسافات إذا تعذرت المشاهدة الحسية أو الرؤية القلبية، فيخاطب الصوفي إخوانه من وراء اللغة، ولكل فئة لغة تواصل تحقق المراد وتوصل المشاعر، فهذا أبو سالم العياشي يكتب للحسن اليوسي قائلا:

مَنْ فاتَهُ الحَسَنُ البَصْرِيُّ يَصْحَبُهُ فَلْيَصْحَبِ الْحَسَنَ الْيوسي يَكْفيهِ[3]

فيرد عليه اليوسي بقوله:

أبا سالمٍ ما أنتَ إلاَّ كَسالِمٍ لَدَيْنا ولَمْ يَقْضِ اللِّقاءُ فَسالِمِ

وَزَوِّدْ غَريباً طالَما قَذَفَتْ بِهِ ضُروبُ النَّوى في كُلِّ أَفْيَحَ قاتِمِ[4]

حيث يجيب الشِّعر على الشِّعرِ، ويبالغ المجيب في نظم الكلام الجميل، ليؤكد المحبة المتبادلة بين متباعدين في المكان، قريبين في الوجدان، وإذا كان تواصل العياشي مع اليوسي مألوفا، فإن خرق مألوف التواصل البشري المتعارف عليه بين الناس، يمكن أن يأخذ أشكالا غريبة، مثل: التواصل الروحي بين متباعدين في المكان، فمن أمثلة ذلك ما يذكره أبو سالم العياشي في رحلته

[1] مُحَمَّد الدناي، الأوزان والقوافي في الشعر العربي بين المرجعيتين القياسية والجمالية، مداخلة علمية ألقاها يوم الخميس 3 دجنبر 2009، بقاعة المحاضرات بكلية الآداب والعلوم الإنسانية – ظهر المهراز- فاس، في سياق الأنشطة السنوية المنظمة من طرف "مختبر التواصل الثقافي وجمالية النص"، تقرير عن المحاضرة أنجزه الطالب مُحَمَّد بنغى، منشور ضمن كتاب: **منهجية البحث: الأسس والتقنيات**، تأليف: مُحَمَّد أوراغ وجمال بوطيب، منشورات مجلة مقاربات ومختبر التواصل الثقافي وجمالية النص، ط: 1، يناير 2010، ص: 53.

[2] عبد الله معصر، بعض مظاهر الخطاب الصوفي المنقبي، **الإشارة**، ع: 15، س: 2، فبراير 1999، ص: 15.

[3] من رسالة أبي سالم إلى أبي علي اليوسي، الرسالة السادسة والعشرون، ضمن: **رسائل أبي سالم العياشي**، جمع وتحقيق ودراسة: مُحَمَّد بزي، أطروحة لنيل الدكتوراه، مرقونة بخزانة كلية الآداب– ظهر المهراز- فاس، (2004-2005)، ص: 275.

[4] المصدر والصفحة نفسهما.

المشهورة والمسماة "ماء الموائد" عن الشيخ أبي زيد عبد الرحمان بن أحمد المكناسي الحسني[1] قائلا: "وكانت بينه وبين والدي رحمه الله مواصلة غيبية ، وصحبة روحانية"[2]. فعلى الرغم من غياب أي لقاء حسي بين والد أبي سالم وبين الشيخ عبد الرحمن ، إلا أن التواصل بينهما ، كان قائما على مستوى الصحبة الروحية. كما تحدث أبو سالم العياشي عن لقائه مع الشيخ عبد الرحمان المكناسي في مكة ، قائلا: "وقد مَنَّ الله علي بملاقاته وزيارته مرارا عديدة مع عِزَّةِ ذلك على غالب الناس ؛ ربما يجلس أحد أعواما بمكة ولا يصل إليه ولا يراه ، سيما إن كان من أهل الجاه الدنيوي"[3] ، حيث يكون اللقاء الحسي بين الصوفية يسيرا عليهم متعذرا على العوام من الناس ، لكن ذلك اللقاء قد يصبح متعذرا في بعض الأحيان ، وبعدما كان التواصل كبيرا أثناء بُعدِ المكان بتبادل الرسائل ، فإن الصوفي قد يخرق هذا المألوف ، عندما يقع القرب والجوار ، فيصبح اللقاء بعيد المنال ، وفي هذه المعاني يقول العياشي متحدثا عن الشيخ أحمد بن مُحَّد بن علي بن عبد القادر المالكي: "ولم يزل بعد ذلك يكاتبني وأكاتبه ، ولي فيه عدة قصائد ، منها ما كتبت به إليه من المغرب ، ومنها ما أنشأته بالمدينة في بعض تلك القُدمات ، ولما مَنَّ الله بالمجاورة في هذه السنة طوى كشحا عن المواصلة ، ولوى ذنبه عن المثافنة ، معتذرا بكثرة الأشغال ، والغيبة في افتقاد الضياع والأموال ، ولم أقبل له في ذلك عذرا ، بل رأيت ذلك في عتابه أحرى ، كما قيل:

إنِّي لأَعذره لِكَثْرَةِ شُغْلِهِ   وأَلُومُهُ إذْ لَسْتُ مِنْ أَشْغَالِهِ

ومع ذلك لم أُظهر له مُوجِدَةً وازورارا في المعاملة ، بل طويت البساط بما فيه ، ولم أصدف عن طريق المجاملة"[4]. حيث أحيانا يتعذر اللقاء الحسي ولو كان المكان قريبا ، وقد كان التواصل كبيرا أثناء بُعد المسافة ، ومن جماليات هذا التواصل أن يلتمس الصوفي الأعذار لغيره فلا تزول المحبة ولو حالت الموانع دون اللقاء ، لأن ما كان لله دام واتصل وما كان لغير الله انقطع وانفصل ، ومقام الإحسان يقتضي التعامل وفق مرتبة المكارمة والوسطية التي لا تبادر بقطع الصلات ، وإنما تلتمس الأعذار وتطوي البساط بما فيه.

---

[1] متصوف زاهد (ت 1085هـ) ، ترجم له أبو سالم في **اقتفاء الأثر** ، ص:157. **نشر المثاني** للقادري ، ج: 2 ، ص: 389. **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس** لعبد الرحمان بن مُحَّد العلوي المكناسي ابن زيدان (ت 1365هـ) ، تح: عبد الهادي التازي ، مطابع إديال ، الدار البيضاء ، ط:2 ، 1990 ، ج:5 ، ص: 279.

[2] **ماء الموائد ، لأبي سالم عبد الله العياشي (ت1090هـ)**، تقديم وتحقيق: خالد سقاط ، أطروحة لنيل الدكتوراه مرقونة بخزانة الآداب والعلوم الإنسانية - ظهر المهراز- فاس ، (1998-1999) ، ج: 4 ، ص: 1019.

[3] المصدر والصفحة نفسهما.

[4] **ماء الموائد** ، ج: 3 ، ص: 740.

ومن النماذج الأخرى التي يمكن استحضارها في هذا السياق زيارة الرحالة العياشي لقبر موسى عليه السلام ، حيث تعذر عليه الوصول إلى مكان القبر ، فزاره بقلبه ، وفي هذا المعنى يقول أبو سالم العياشي: "وتوجهنا إلى المحل بقلوبنا ووجوهنا عندما طلعنا إلى الطور ، وزرناه من هناك"[1] ، فهو تواصل روحي ، قد ينتفع به الصوفي أكثر من تواصله الحسي المألوف ، حيث يقول أبو سالم العياشي: "قرب الأرواح أنفع من قرب الأشباح"[2]. وجدير بالذكر أن كتب القوم تحفل بنماذج كثيرة لهذا النمط من التواصل العجيب ، وخاصة ذلك اللقاء الروحي أو الحسي بين الصوفية والخضر عليه السلام[3] ، وهو لقاء يمثل بؤرة التواصل الذي يصنع الولاية ويؤكدها فيرسخ المقدس ويمنح له الشرعية المطلقة ، فإذا كانت التجربة الصوفية "حالة روحية يتصل فيها العبد بربه اتصال المتناهي باللامتناهي"[4] ، فإنه يَسْهُلُ على المتصوف الاتصال بمن اصطفاهم الحق تعالى وجعلهم عباده المخلصين ؛ ويأتي النبي ﷺ والخضر عليه السلام على رأس هؤلاء الذين اصطفاهم الحق ، ولذلك لا عجب أن يتواصل الصوفي معهم روحيا ، ليقتبس الحكمة والقداسة وينال الولاية والبركة.

خصوصية التواصل العجيب عند الصوفية

إذا كان الدارسون يتحدثون عن نوعين من اللغة ، وهما: اللغة العادية ؛ لغة الإخبار والتواصل اليومي ، ثم اللغة الأدبية ؛ لغة الإبداع الفني والجمالي ، فإن "اللغة عند المتصوفة" نوع ثالث ، له خصوصياته ومميزاته ، ذلك أن أرقى ما يمكن أن نتحدث عنه في الإبداع ، هو الكتابة الصوفية ، "فالصوفية أبدعوا أجمل أدب على الإطلاق ، في لغته وفي محتواه وفي أذواقه وتجربته ومعاناته"[5] ، لأن الصوفي "بقدر ما تزكو نفسه ، بقدر ما تنهض همته لاكتساب العلوم ، وتصفو نظرته في آفاق المعارف ، فيرى ما لا يراه غيره ، ويدرك بالبصيرة ما يعجز عن إدراكه بالبصر"[6] ، ومن ثم فإن للتواصل عند الصوفية خصوصيات معينة تجعله فريدا من نوعه ، حيث تنتقل اللغة الواصفة في استعمال الصوفية من المألوف إلى العجيب ، ومن العجيب إلى الأعجب فيما بعد ، في سياق التجاوز ، لتشكل

[1] المصدر نفسه ، ج: 4 ، ص: 1153.

[2] **رسائل أبي سالم العياشي** ، إلى بهاء الدين الطيب المنساوي ، الرسالة الثامنة ، مصدر سابق ، ص: 62.

[3] ينظر على سبيل التمثيل لا الحصر لقاء عبد العزيز الدباغ بالخضر عليه السلام ، ضمن كتاب: **الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ** ، أحمد بن المبارك السجلماسي المالكي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط:3 ، 2002 ، ص: 20.

[4] عادل أبو طالب ، الصوفية الشعرية في صالون الخليل بن أحمد الفراهيدي ، **نزوى** ، ع: 15 ، يوليو 1998 ، ص: 251.

[5] عبد الإله بن عرفة ، في حوار أجرته معه مجلة **عوارف** حول جماليات عليا ، مجلة عوارف ، مط. ألطوبريس ، طنجة ، ع: 2 ، 2007 ، ص112.

[6] عبد الكبير العلوي المدغري ، **مصادر العلوم في الفكر الصوفي** ، درس ديني ألقي بحضرة الحسن الثاني رحمه الله بتاريخ 26 فبراير 1993 ، ص:47.

بذلك صورة رؤيا للتجربة الصوفية، تتجاوز الإدراكين الحسي والعقلي، إلى إدراك الحلم الروحي الذوقي القائم على ملكة الخيال والباعث للانفعال والمولد للذة الشعور والإحساس بنشوة الجمال والجلال الصوفيين، فلغة التواصل عند القوم لا تتلاءم مع لغة عالم الحس والرؤية بعين الرأس، لأنها "تجليات للمطلق، تجليات لما لا يقال، ولما لا يوصف، ولما تتعذر الإحاطة به[1]، ولذلك كانت الكتابة الصوفية نفسها نمطا من التواصل.

الكتابة الصوفية نمط من التواصل

إذا كانت التجربة الصوفية في عمومها تسقى بماء واحد، مصدره ينبوع المحبة أو بحر الحب، "الذي يخلخل المرء عن عقله، ويأخذ بكله، ويغيبه عن وطنه وأهله (...) فيتصل بأصله، فيكون به في ذاته وقوله وفعله"[2]، فإن التعبير عن هذه التجربة متنوع، ومتلون حسب أحوال المحب، وألوان شوقه، وحنين روحه إلى النبع الصافي الذي انبثقت منه وولجت الجسد الفاني، حيث كانت تسوية الإنسان ونَفْخُ الروح فيه أمرا عجبا، كما قال الحق تعالى: ﴿ **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن روحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ** ﴾[3]، ومعلوم أنه لا سجود لغير الله تعالى، فهذا سجود تحية وتكريم، حيث شرف الجسد البشري بوجود روح من الله فيه، اقتضت تعظيم الملائكة لخلق الله. وفي موقف آخر، أقر البشر جميعا بوحدانية الله، حين أشهدهم الحق على أنفسهم: ﴿ **أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا** ﴾[4]، فظل حنين الإنسان إلى ذلك الخطاب الرباني في الأزل، ناطقا بتوحيد الله، فلا عجب أن يعبر الصوفي عن لحظة الشوق والحنين لذلك الأصل، بأنواع من الكتابة، التي تجسد محبته ووفاءه، وتعكس طموحه في القرب من محبوبه والعودة إلى الزمن الأصلي عبر التواصل مع الحق.

---

[1] أدونيس، **الصوفية والسريالية**، دار الساقي، بيروت، ط:2، 1995، ص:23.

[2] **قوانين صوفية للهاشمي ابن عجيبة**، تق. وتح: حنان الفاضلي، **دعوة الحق**، ع: 395، أبريل 2010، ص:133. الهاشمي ابن عجيبة شخصية مغمورة إلى حد ما، توفي في السنة نفسها التي توفي فيها أخوه الشيخ أحمد ابن عجيبة، وهي سنة 1224هـ. ينظر ترجمته في مقدمة تحقيق قوانينه الصوفية، المصدر نفسه، صص: 126-129.

[3] سورة: الحجر، الآية:29. وسورة: ص، الآية: 72.

[4] إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ**﴾ سورة الأعراف، الآية: 172. وهي الآية التي يستدل بها الصوفية في سياق كلامهم عن حنين الروح إلى حلاوة الخطاب الأزلي: ﴿ **أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ** ﴾، وكنوا عن ذلك الموقف بـ"يوم ألست"، وهو الشوق الذي يتأسس عليه مفهوم "الحال"، وما يتبعه أحيانا من شطحات. ينظر: **بغية السالك في أشرف المسالك** لأبي عبد الله الساحلي المالقي الأندلسي (ت754هـ)، تح: عبد الرحيم العلمي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 2003، ج:1، ص:121. وكذلك: أبو نصر السراج الطوسي (ت378هـ)، **اللمع**، تح. وتق: عبد الحليم محمود، وطه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة بمصر، ومكتبة المثنى ببغداد، 1960، ص:138.

بهذا المعنى تصير الكتابة تجربة قائمة الذات ، وليس مجرد وسيلة للإبلاغ والتواصل ، إنها من تكتب الصوفي وليس العكس ، فقد حركته الأشواق والأذواق للبوح ، فأملت عليه ما يكتب ، هي من كتبتْ ، فصنعتِ الكاتبَ أي الصوفي ، وهو يمارس تجربته بالكتابة ، أي يتحول زمن الكتابة إلى لحظة تجربة حقيقية ، يحس فيها بمرارة البعد وألم الفراق ولسع الشوق يعصر قلبه ، فيطول فناؤه أو يقصر إلى أن يوهب له البقاء بوصال محبوبه ، فيكون "شهود الحق حقا ، ومعرفة الجمع فرقا"[1] ، وهي ثمرة لا تنال إلا بمعاناة التجربة ، إذ ليست الكتابة سهلة ، فهنا نستحضر لحظة نزول الوحي على الرسول ﷺ حيث تعجز الناقة عن حمل النبي ﷺ من شدة ثقل الأمانة أي الوحي ، يقول ابن عربي: "ومن أعجب الأشياء الواقعة في الوجود ، ما أقوله ، وذلك أن الملائكة إذا تكلم الله بالوحي ، كأنه سلسلة على صفوان تصعق الملائكة ، ورسول الله ﷺ كان إذا نزل عليه الوحي كسلسلة على صفوان يصعق وهو أشد الوحي ، فينزل جبريل به على قلبه ، فيفنى عن عالم الحس ويرغو ويسجي إلى أن يسري عنه وإنه لينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيتفصد جبينه عرقا"[2] ، كذلك الصوفي يشعر بثقل ما يجد ، فلا تسعفه اللغة ، ويبطل الكلام المألوف ، ليحل الصمت أو الجنون أو الشطح ، يقول البسطامي: "من عرف الله بهت ، ولم يتفرغ إلى الكلام"[3] ، فإذا نطق قال العجب ، ودوّن العجيب ، ولا عجب في ذلك ، لأن شخصية المجنون مقبولة في سياق الخلق والإبداع من أجل إنتاج "عجيب الجنون الإيجابي"[4] ، ولا يختلف ذلك عما هو مألوف عند الصوفية مثل ظاهرة البهاليل والمجاذيب الذين يتجاوز خرقهم للعادة ما هو مألوف عند أهل الفن والأدب ، فمن المتصوفة قوم بهاليل (...) يقع لهم من الإخبار عن المغيبات عجائب لأنهم لا يتقيدون بشيء ، فيطلقون كلامهم في ذلك ، ويأتون منه بالعجائب[5].

هكذا تصير التجربة الصوفية والكتابة المعبرة عنها تواصلا مفصحا عن أشواق الحنين إلى الحق ، ومحاولة بلوغ القرب منه سبحانه ، وأثناء هذه المحاولة يقع التداخل والتجانس ، بين المتباعدات ، والأضداد ، والأشباه والنظائر ، إلى حد التكامل ثم التماهي ، فلا تكاد في النهاية تفرق بين التجربة والكتابة والصوفي ، يصبح الكل معبّرا عن الكل ، ولا يتبين: مَنْ صنع مَن ؟ وفي ذلك ، بعض العجب

---

[1] **قوانين صوفية للهاشمي ابن عجيبة** ، مصدر سابق ، ص:133.

[2] ابن عربي الحاتمي (ت 638هـ)، **إنشاء الدوائر** ، تحقيق: نييبرج ، مط. بريل ، ليدن 1919 ، أعادت طبعه دار: عالم الفكر ، القاهرة ، 1997 ، اعتنى به: عاصم إبراهيم الكيالي ، ص: 131.

[3] عبد الرحمن بدوي ، **شطحات الصوفية** ، وكالة المطبوعات ، بيروت- الكويت ، ط: 3 ، 1978 ، ص: 165.

[4] مُحَمَّد علي الكردي ، الجنون في الأدب الفرنسي ، العقل واللاعقل أو خطاب الجنون عند ديدرو ، **عالم الفكر** ، ع: 1 ، مج: 13 ، 1987 ، ص: 21. وحول ظاهرة الجنون عند الصوفية ، ينظر: إبراهيم أبو شوار ، مقاربة تأويلية لقراءة علاقة العشق بالجنون في تصوف ابن عربي ، **الوحدة** ، ع:49 ، س: 5 ، 1988 ، ص: 212.

[5] أحمد الوارث ، **الأولياء ودورهم الاجتماعي والسياسي في المغرب خلال القرن السادس عشر** ، رسالة جامعية مرقونة بخزانة كلية الآداب والعلوم الإنيانية - ظهر المهراز- فاس ، 1988 ، ص: 60 وما بعدها.

الذي يولّد السكر الجمالي الذي يغيّب الحواس ، مفسحا المجال للقلب كي يتذوق بعض الحقائق ﴿ **لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾[1] ، فالقلب آلة الذوق ومستقر الحق ، وبدون هذه الآلة يصعب فهم "الكل" أي ؛ التجربة والكتابة والصوفي ، وقد يتصاعد التماهي ، فيبلغ درجة قصوى بأن يصبح الصوفي وهو في قمة الوصال وتلقي الفتح أو الفيوضات معبرا عن الكل وربما كل الكل أو كل كل الكل ، كما في قول "محمد بن عبد الكبير الكتاني":

أنَا كُلُّ كُلِّ الكُلِّ طَلْسَمُ طَلْسَمٍ   بِذَاتِي خَلَتْ ذَاتِي بِكَاسَاتِ خَمْرَةِ[2]

هكذا ، يمكن الاقتراب أكثر من أهمية الكتابة الصوفية وموقعها المؤثر ضمن منظومة التواصل الإنساني في بعده الروحي والوجداني ، ولأن المتصوف لا يملك غير اللغة والأوراق لتدوين ما يشعر به من الأشواق ، ونقل ما يختلج في قلبه من الأذواق ، فهو يضطر إلى تحميل اللغة فوق ما تطيق ، وشحنها بألوان المعاني التي تضيق عن حملها المباني ، فيصبح الخرق ، ثُمَّ التجاوزُ سمة مميزة لهذه الكتابة/التواصل.

تواصل يؤلف بين المتباعدات

عمل بعض الصوفية على "تأليف المتنافر ومُواءمة البعيد للبعيد حتى تظهر علاقة جديدة تكون مصدر التعجيب"[3] في خطاب التواصل ، حيث تتجاور المتباعدات وتجتمع الأضداد ليشكّل الكل نسقا موحدا ، مخالفا للمعهود من التراكيب والصيغ اللغوية ، ومن ذلك مثلا:

وِدَادُكُمْ هَجْرٌ، وَحُبُّكُم قلى   وقُرْبُكُمْ بُعْدٌ، وَسِلْمُكُمْ حَرْبٌ[4]

من المألوف أن الهجر غير الوداد ، والحب يتنافى مع الجفاء ، والقرب لا يجتمع مع البعد ، وليس السلم مثل الحرب ، لكن السياق الصوفي استطاع الجمع بين كل تلك الأضداد ، بل شكّل منها قطعة فنية تزخر بمظاهر الجمال ، والأنس والتعايش بين الأباعد ، فكما أن الصوفي يعيش حالة القرب من

---

[1] سورة: ق ، الآية: 37.

[2] محمد بن عبد الكبير الكتاني ، القصيدة التائية ، تقديم وتحقيق: عبد الوهاب الفيلالي ، **المريد** ، ع:5 ، 1993 ، ع:6 ، 1994. ينظر أيضا: **ديوان الكتاني** الشيخ أبي الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني ، جمع وتقديم وتحقيق: إسماعيل المساوي ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط:1 ، 2005 ، ص: 125.

[3] شكري المبخوت ، **جمالية الألفة** (النص ومتقبله في التراث النقدي) ، ، منشورات بيت الحكمة ، قرطاج ، تونس ، ط:1 ، 1993 ، ص: 141.

[4] **الرسالة القشيرية** ، أبو القاسم القشيري ، تحقيق: عبد الحليم محمود ، ومحمود بن الشريف ، مطابع مؤسسة دار الشعب ، القاهرة ، د.ط ، 1989 ، ص:167.

خالقه، وهو يغادر بشريته، لأن "النعمة العظمى: الخروج من النفس"[1]، فينفي وجوده المادي ويتجاوزه، إلى ما هو روحي ومعنوي، حيث إن النفس "إذا خالفت هواها صار داؤها دواءها"[2]، وصارت الحياة مع الموت، كما قيل:

وتَحْيَ مُحِبًّا أنْتَ في الحُبِّ حَتْفَه وَذَا عَجَبٌ كَوْنُ الحَياة مَعَ الحَتْفِ[3]

كما يصير الصمت موضع الكلام والكلام مكان الصمت، في تبادل عجيب للأدوار: "إذا أعجبك الكلام فاصمت، وإذا أعجبك الصمت فتكلم"[4]، فلا عجب، أن يجتمع الداء والدواء، والموت والحياة، والصمت والكلام، وما إلى ذلك مما لا يجتمع في العادة، كالغنى والفقر، في قولهم: "إظهار الغنى في الفقر، أحسن من الفقر"[5]، و"من رأى أنه قريب فهو بعيد، ومن تواجد فهو فاقد"[6]، حيث يندمج القرب مع البعد والشوق مع الرؤية والفقدان مع التملك، في موقف واحد يدعو إلى العحب والحيرة، كيف اجتمع كل ذلك؟ فيأتي الجواب: وكيف يُصنع الجمال إن لم يكن بتأليف الأباعد؟ يقول ابن عربي، مؤلفا ما لا يأتلف من الأضداد، فلا يُخفي عجبه:

وَمِنْ عَجَبٍ أَنِّي أحِنُّ إِلَيهِم وأَسْأَلُ شَوْقًا عَنْهُم وَهُمْ مَعِي

فَتبكيهم عَيْنِي وَهُمْ فِي سَوَادِهَا وَتَشْتَاقُهُمْ نَفْسِي وَهُمْ بَيْنَ أَضْلُعِي[7]

فكما أن الصوفي يجمع في سلوكه بين الأضداد، فيخلي نفسه من الرذائل ويحليها بالفضائل، كذلك تواصله مع الآخر، يجتمع فيه كل ما كان متضادا، خارقا بذلك مألوف التواصل.

تواصل غير مألوف: غرابة المرجع أو المصدر

لتبيّن غرابة المصدر في الكتابات الصوفية وتأثيره في نمط التواصل الناتج عن ذلك، يمكن الانطلاق من نموذج تضمنته الرسالة القشيرية، باعتبارها متنا له مكانته البارزة في التراث الصوفي:

---

[1] المصدر نفسه، ص:275.

[2] المصدر والصفحة نفسهما.

[3] المصدر نفسه، ص:306.

[4] المصدر نفسه، ص: 228.

[5] المصدر نفسه، ص: 457.

[6] المصدر نفسه، ص: 496.

[7] ابن عربي الحاتمي (ت638هـ)، **كتاب الحُجُب**، اعتنى به: عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص: 99.

"مر بعض الأنبياء عليهم السلام ، بحجر صغير يخرج منه الماء الكثير ، فتعجب منه ، فأنطقه الله معه ، فقال: مذ سمعت الله تعالى يقول: ﴿ **نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ** ﴾[1] وأنا أبكي من خوفه. قال: فدعا ذلك النبي أن يجير الله ذلك الحجر ، فأوحى الله تعالى إليه ، أني قد أجرته من النار. فمر ذلك النبي ، فلما عاد ، وجد الماء يتفجر منه مثل ذلك ، فعجب منه ، فأنطق الله ذلك الحجر معه ، فقال له: لم تبكي ، وقد غفر الله لك ؟ فقال: ذلك كان بكاء الحزن والخوف ، وهذا بكاء الشكر والسرور"[2].

إن تعجب النبي من خروج الماء الكثير من الحجر الصغير ، يمكن عده بمثابة المستوى المألوف في التعجب ، إذ مجرد مخالفة الحدث لما هو معتاد ومألوف ، يكون مدعاة لحصول نوع من الدهشة والاستغراب ، ثم إذا ظهر السبب ، وهو في حد ذاته عجيب كذلك (خوف الحجر من النار وبكاؤه حزنا على ذلك)، لم يبطل العجب ، بل زاد التعجب بنطق الحجر وإبلاغه للنبي سبب خروج الماء منه (دموع الخوف والحزن)، وعندما نطق الحجر في المرة الثانية ، كان فعله عجيبا أيضا (بكاؤه شكرا لله وسرورا بنجاته من النار)، حيث يخرج المتلقي من عجيب ليلج ما هو أعجب منه ، فيستمتع بالحكي ويجني المعرفة.

إن تعجب النبي وهو الذي اعتاد العجيب وأَلِف الخارق نظرا لصلته المستمرة بالله ، إنما هو في الواقع ، تَعَجُّبُ من يحكي القصة ، ويمارس السرد ، فليس عجيبا أن تُكلم الجماد ، لكن العجيب هو أن يُكلمك الجماد ، فضلا عن بكاء هذا الأخير أمامك أو سروره ، وأنت لا تدري أن الماءَ دَمْعٌ ، وكأن هناك استحضارا ضمنيا لتقابلٍ عجيب بين دموع الحجارة التي تُحيي الأرض ، ودموع الأولياء التي تُحيي القلوب ، وهو أقل ما يجنيه المتلقي من المعرفة ، وكأن القصة تفسيرٌ للأسباب الخفية وراء تفجر بعض الحجارة بالماء ، حزنا أو فرحا ، ففي الحالتين معاً يتدفق الماء رقراقا ، والإنسان يمر غافلا ، لا يدري ، ولا يكتشف الأسرار إلا مَنْ كانت لديه القدرة على التواصل مع الموجودات بما فيها الحجارة.

إذا كان الأديب مَصدرا لإبداعه ، فالصوفي لم يكن كذلك ، وإنما هو ناقلٌ للمعرفة ، مُعَبِّرٌ عن المعاني ، وعَبْرَهُ ينتقل المقدس ليُطَهِّر المدنس ، فرسالة المتصوف هي إنقاذ العالم ، عبر لفت انتباه الخلق لكلام الخالق ، فهو يقوم بتبليغ الرسالة كما أُلهمها من قبل الله ، حيث سميت الكتابة "كتابة" من باب المجاز ، وإلا فهي على الحقيقة ضربٌ من الإلهام والفيض والفتح ، وهذا الأمر يقودنا للحديث عن مصدر الكتابة الصوفية وأثرها في خلق تواصل فريد.

---

[1] سورة التحريم ، الآية: 6.

[2] **الرسالة القشيرية** ، مصدر سابق ، ص:314.

يميز الصوفية بين الوحي الخاص بالأنبياء ، والإلهام[1] الذي يزين الأولياء ، حيث يختلف العلم الناتج عن كل واحد منهما ، كما يقول الغزالي: "والعلم الحاصل عن الوحي يسمى علما نبويا ، والذي يحصل عن الإلهام يسمى علما لدنيا ، والعلم اللدني هو الذي لا واسطة في حصوله بين النفس وبين الباري (...) فالوحي حلية الأنبياء والإلهام زينة الأولياء"[2], فالصوفية "لهم الفراسة والإلهام والصديقية"[3] ، و"أوضح علاماتهم ما ينطقون به من العلم من أصوله"[4] ، ولذلك فإن الحقل المعجمي الدال على الإلهام من أغنى الحقول الدلالية في المدونة الصوفية ، حيث يضم جملة واسعة من الألفاظ والمصطلحات ، من قبيل: الفيض والكشف والموهبة والخواطر والواردات ، واللوائح واللوامع والطوالع ، والأنوار والأسرار والتجليات ، والبوادِه والهجوم ، وغير ذلك[5] ، و"التي تفاجئ العباد والزهاد من مطالعات أنوار عجائب الملكوت"[6] ، حيث تهجم على المرء فلا يستطيع لها دفعا ، يقول عبد الكريم الجيلي(ت 805هـ): "فإن مكالمات الحق تعالى لعباده وإخباراته مقبولة بالخاصية لا يمكن لمخلوق دفعها أبدا"[7] ، وهي فتوحات تقع للسالك في بعض مراحل سيره إلى الله بغير جهد ، ويعدها من نعم الله التي ينبغي إظهارها أحيانا ، وسترها أحيانا أخرى ، "فالحق تعالى يسبغ بعض نعمه على أحبائه ظاهرة وباطنة ، بفتح رباني"[8] وكشف إلهي ، ليوصل للناس تعاليم الحق.

إن هذا النمط من التواصل الذي يزعم تلقي المعرفة من الحق مباشرة ، يعتبر من باب خوارق العلم ، وقد فصّلها ابن تيمية بقوله: "فتارة بأن يسمع العبد ما لا يسمعه غيره ، وتارة بأن يرى ما لا يراه غيره يقظة أو مناما ، وتارة بأن يعلم ما لا يعلم غيره وحيا وإلهاما ، أو إنزال علم ضروري ، أو فراسة صادقة ، ويسمى كشفا ومشاهدات ، ومكاشفات ومخاطبات ، فالسماع مخاطبات ، والرؤية مشاهدات ،

---

[1] لا يقتصر الإلهام على الأدب والفن فحسب ، بل يتعدى ذلك إلى العلم ، ينظر: عيسى فتوح ، الإلهام في الأدب ، **دعوة الحق** ، ع: 2 ، س: 8 ، دجنبر 1964 ، ص:31.

[2] أبو حامد الغزالي ، الرسالة اللدنية ، **مجموعة رسائل الإمام الغزالي** ، راجعها وحققها: إبراهيم أمين محمد ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، د.ط ، د.ت ، ص: 249-250.

[3] الحكيم الترمذي ، أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن (ت بعد 318هـ) ، **ختم الأولياء** ، وضع حواشيه: عبد الوارث محمد علي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط: 1 ، 1999 ، ص: 40.

[4] المصدر نفسه ، ص: 42.

[5] لتعرف الدلالات الفرعية لكل لفظ على حدة ، يُنظر كتب اصطلاحات القوم ، مثلا: **الرسالة القشيرية** ، **واللمع** للطوسي ، **ومعراج التشوف إلى حقائق التصوف** لابن عجيبة ، وغيرها.

[6] يوسف زيدان ، **شرح مشكلات الفتوحات المكية لابن عربي، الجيلي** ، دار الأمين للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط:1 ، 1999 ، ص:78.

[7] عبد الكريم الجيلي ، **الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل** ، تحقيق: أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط:1 ، 1997 ، ص:12.

[8] حسن الشرقاوي ، **معجم ألفاظ الصوفية** ، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط:1 ، 1987 ، ص:229.

والعلم مكاشفة ، ويسمى ذلك كله كشفا ومكاشفة ، أي كشف له عنه"[1]. ويظهر أن الصوفية قد عرفوا كل تلك المظاهر ؛ فكما خرقوا من أنفسهم العوائد خُرقت لهم أسباب العلم وأشكال التواصل مع مصدر المعرفة ، ومن ثم ، أقر القوم بأن كتاباتهم هي من وحي الإلهام ، أو علم الخرق مقابل علم الورق ، كما قال أبو بكر الشبلي (ت334):

تسربلتُ للحرب ثوب الغَرَقْ وهِمْتُ البِلاَدَ لوجد القَلَقْ

فإذا خاطبوني بعِلْمِ الوَرَقْ بَرزتُ عليهم بعِلْمِ الخَرَقْ[2]

وقول آخر:

إِذَا أَهْلُ العِبارة سَاءَلُونا أَجَبْنَاهُمْ بِأَعْلاَمِ الإِشَارة

نُشِيرُ بِهَا فَنَجْعَلُهَا غُمُوضاً تَقْصُرُ عَنْهُ تَرْجَمَةُ العِبَارة

ونَشْهَدها وتُشْهِدُنا سُروراً لَهُ فِي كُلِّ جَارِحَة إِنَارة

تَرَى الأَقْوَالَ فِي الأَحْوَالِ أَسْرَى كَأَسْرِ العَارِفِينَ ذَوِي الخَسَارة[3]

يأتي ابن عربي على رأس الصوفية الذين جعلوا من علم الخرق أو الكشف بطريق الإلهام مصدرا عجيبا لأغلب كتاباتهم ، فقد ذكر أن معظم كتاباته ليست من تأليفه الشخصي ، وإنما هي من الفتوحات الواردة على قلبه ، وعلى سبيل المثال ، يفتتح كتابه: "شق الجيب بعلم الغيب" بقوله: "الحمد لله رب العالمين ، الذي وفقني للسباحة في بحر اليقين ، وقواني على إخراج الدرر من أصداف العبارات ، والاستعارات العجيبة ، والأوضاع الجديدة ، الواردة على قلبي بإلهام ربي ، وهي في الحقيقة درر عوارفه في حق العارفين"[4]. وكذلك ، كتابه "فصوص الحكم" الذي يقول أنه تلقاه من يد النبي مُحَمَّد ﷺ في رؤيا ، يحكي تفاصيلها قائلا: "فإني رأيت رسول الله (...) وبيده ﷺ كتاب ، فقال لي: هذا "كتاب فصوص الحكم" ، خذه واخرج به إلى الناس ينتفعون به ، فقلت: السمع والطاعة لله ولرسوله وأولي الأمر منا كما

---

[1] ابن تيمية ، أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم (ت 728هـ) ، **المعجزات والكرامات وأنواع خوارق العادات ومنافعها ومضارها** ، تحقيق ودراسة: أحمد العيسوي ، دار الصحابة للتراث بطنطا ، مصر ، ط: 1 ، 1990 ، ص: 11- 12.

[2] يوسف زيدان ، **عبد الكريم الجيلي: فيلسوف الصوفية** ، مرجع سابق ، ص: 21.

[3] أبو بكر مُحَمَّد بن إسحاق الكلاباذي (ت 380هـ) ، **التعرف لمذهب أهل التصوف** ، ضبطه وعلق عليه وخرج آياته وأحاديثه: أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط:1 ، 1993 ، ص: 103.

[4] ابن عربي ، **شق الجيب بعلم الغيب** ، ص:285.

أمرنا. فحققت الأمنية وأخلصت النية وجردت القصد والهمة إلى إبراز هذا الكتاب كما حده لي رسول الله ﷺ من غير زيادة ولا نقصان"[1]، ومن كتب الإلهام كذلك، كتاب "مواقع النجوم ومطالع أهلة الأسرار والعلوم" الذي صنفه ابن عربي في ألميرية سنة 595هـ، وهو ثمرة من ثمرات اللقاء مع الحق سبحانه في رؤيا تسلم فيها الكتاب ليبلغه للناس ناصحا[2]، وكذلك الشأن في جل كتابات ابن عربي، كانت مصدر إلهام، كما يدل عليها عنوانها، على سبيل المثال: "الفتوحات المكية" و"التنزلات الموصلية"، وغيرهما.

أما غير ابن عربي، فيأتي كتاب: "الإنسان الكامل" لعبد الكريم الجيلي الذي يقول في مستهله: "بعد أن شرعت في التأليف، وأخذت في البيان والتعريف، خطر في الخاطر أن أترك هذا الأمر الخاطر (...) وشرعت في تشتيته وتمزيقه (...)، فأمرني الحق الآن بإبرازه بين تصريحه وإلغازه، ووعدني بعموم الانتفاع، فقلت طوعا للأمر المطاع، وابتدأت في تأليفه"[3]، حيث أمره الحق تعالى بالكتابة، وكذلك كتاب "الجفر" لصاحبه مُحَمَّد ماضي أبي العزائم، "قبس من أنوار مشكاته تلقاه قلبه السليم من الأغيار، في حال تجرده من القيود الكونية، وغيبته عن نفسه وحسه، غيبة هي عين الحضور في حضرة السر والنور، فترجم به لسان بيانه، كاشفا الأستار عن غيوب الأسرار"[4].

صفوة القول، إن التواصل عند المتصوفة، يضع المتلقي وجها لوجه أما محتوى رسالة من نوع خاص، فليس المتصوف سوى وسيط للمعرفة "المقدسة"، لأنها لم تصدر من بشر، وإنما الصوفي مُختارٌ تنزّل عليه الفيض وأُلهم بتدوين ما تنزل عليه، وليس ما يقع له من فتح وكشف تفردا إنسانيا لم يكن له مثال سابق، وإنما فِعْلُ الإلهام يستمد شرعيته و"إمكانية حدوثه" من القرآن الكريم والسنة النبوية، باعتبارهما أصلٌ للممارسة الصوفية، وحيث إن التصوف يستمد من هذين المصدرين كل محتواه، كان ممكنا أن يستمد من أصل المصدرين كذلك، إذ يؤدي ترقي الصوفي في مقامات السلوك إلى الأخذ من مصدر المصدر، بلا واسطة، وقد كان أبو يزيد البسطامي "يخاطب علماء عصره قائلا: أخذتم علمكم عن علماء الرسوم ميتا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت"[5]. وهذا دليل على أن التواصل عند المتصوفة يخرق مألوف التواصل الإنساني المتعارف عليه.

---

[1] ابن عربي، **فصوص الحكم**، تح: أبو العلاء عفيفي، دار الكتاب العربي، ط:2، 1980، ص: 47.

[2] نصر حامد أبو زيد، **هكذا تكلم ابن عربي**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط:1، 2002، ص: 131.

[3] عبد الكريم الجيلي، **الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل**، مصدر سابق، ص:8.

[4] مُحَمَّد ماضي أبو العزائم، **الجفر**، مرجع سابق، ص: 4.

[5] علي حرازم ابن العربي برادة، **جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس أحمد التجاني**، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، د.ط، 1963، ج: 3، ص: 56.

عجيب التواصل مع الآخر

يظهر أن مخالفة المألوف في نمط التواصل الصوفي ، قد دشن لتواصل عجيب ، يقوم على الإخفاء بدل البيان ، وفي الآن نفسه يبوح ببعض الإشارات ، وكأن المتصوف بهذا المنهج يركز على الكيف لا الكم في انتقاء مخاطبيه ، فيشترط فيهم – بشكل ضمني- القدرة على تذوق المعنى من خلال الإشارة والتلميح ، دون الحاجة للتصريح ، فمن توفرت فيهم الفطنة وصفت قلوبهم ، كانوا أهلا لولوج قِسْم التصوف ، لأنهم أقدر من غيرهم على متابعة تمارينه الشاقة ، ودروسه الصعبة ، وفوق كل هذا وذاك ، يملكون الآلة العجيبة ، وهي آلة الذوق ، كما يقول ابن عربي: "فمن كان له قلب وفطنة ، شغله طلب الحكمة عن البطنة ، ووقف على ما رمزناه ، وفك المعمى الذي لغزناه"[1] ، وقد احتاج الصوفية لإخفاء المعاني من أجل حماية الأذواق وصيانتها ، حتى لا يستغلها "الأشرار" في إذاية الأخيار ، ولهذا وجب حفظ الأسرار كما يقول الغزالي: "وجب حفظ الأسرار على وجه الإسرار من الأشرار"[2] ، ولذلك ، يُمنع البوح ويُكتفى بالإشارة ، فالسر الإلهي ، لن يكون سرا إذا شاع وانتشر ، كما يقول ابن عربي: "ولولا إفشاء السر الإلهي ، لشافهنا به الوارد والصادر ، وجعلناه قوت المقيم وزاد المسافر"[3] ، ولذلك وجب تحقيق التوزان ، كما قيل:

فَمَنْ مَنَحَ الجُهَّالَ عِلْمًا أَضَاعَه وَمَنْ مَنَعَ المُسْتَوْجِبِينَ فَقَدْ ظَلَم[4]

إن التواصل عند المتصوفة يروم ولوج المتلقي مقام الصفوة ، ولا يتحقق هذا ، إلا بكسر مألوف المعاني والتدرب على كشف أسرار العبارات ، فإذا كان الجوهر يكمن في العمق لا السطح ، فإن بابه يكمن في الشوق إلى ما وراءه لا تتبع دلالاته في السطر ، حيث المعاني تسكن في أعماق اللفظ ولا تُستنبط إلا بتحقيقها ، كما أشار إلى ذلك ابن عربي بقوله:

وَحَقِّقْ مَا رَمَى لكَ مِنْ مَعاَن حَواها لَفُظُه العَذْبُ العَجِيبُ

وَلاَ تَنْظُرْ إِلَى الأَكَوانِ تَشْقَى ويَتْعَبُ جِسْمُكَ الفَذُّ الغريبُ[5]

---

[1] **رسائل ابن عربي** ، مصدر سابق ، ص:340.

[2] أبو حامد الغزالي ، **مشكاة الأنوار ومصفاة الأسرار** ، شرح ودراسة وتحقيق: عبد العزيز عز الدين السيروان ، عالم الكتب ، بيروت ، ط:1 ، 1986 ، ص:117.

[3] **رسائل ابن عربي** ، مصدر سابق ، ص:340.

[4] ورد البيت منسوبا للإمام الشافعي ، وذلك من قبل ناشر كتاب: **جواهر التصوف** ، ليحيى بن معاذ الرازي (ت258هـ)، جمع وشرح وتعليق: سعيد هارون عاشور ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط:1 ، 2002 ، ص:44.

[5] **رسائل ابن عربي** ، مصدر سابق ، ص:336.

يتبين أن قول كل شيء وعرضه ميسورا أمام الصادر والوارد ، أمر غير وارد عند الصوفية ، حيث يلجؤون إلى إخفاء المعاني خلف العبارات ، لأنهم يريدون متلقيا "مجاهدا" أو "صوفيا" مثلهم يستحق ثمرة معاناتهم ، فيقدِّر قيمة الكنز الذي بين يديه ، خلافا للمتلقي العادي أو المألوف ؛ يقتات على ما توضحه قرائن النصوص أو يشرحه المبدع ، فيأخذ المعنى صيدا جاهزا للاستهلاك ، يكون مصيره الإهمال والنسيان ، إذ لا يتجاوز أثره لحظة القراءة/التواصل ، ولا تتجاوز لذته زمن نطق الكلمات ، حيث لا صدى له ولا ذاكرة ، ولا تجسيد له في السلوك والعمل.

وإذا كان للتواصل الصوفي كل هذا التأثير ، فإن ذلك يؤكد أن عمل اللغة في الفكر والموجودات خطير ، "إن اللغة (...) هي التي تخلق العقل ، أو على الأقل تؤثر في التفكير تأثيرا عميقا وتسدده ، وتوجهه توجيها خاصا"[1] ، ومعنى ذلك ، أن التواصل عبر الكتابة الصوفية باعتبارها نسيجا مكونا من اللغة والفكر ، يحمل آثارا نفسية واجتماعية "تتعدى حدود التلقي الأدبي بكل مقوماته ، وتسري في مسارب الفعل الاجتماعي ، لكن يظل للغة النص الأدبي دور في هذه العلاقة يختلف تماما عن دور لغة النص العلمي أو الفلسفي أو الحديث اليومي"[2] ، ولقد وعى الصوفية هذه الخطورة فقالوا: "الكلمة العناية الخارقة للعادة"[3] ، ولذلك وجهوا اهتمامهم "بالمتقبل ، لأن المهمة تتعدى التأثير الجمالي البحث ، إلى محاولة التأثير في البنية العقلية والفكرية ، فالصوفي يعد نفسه صاحب رسالة"[4] ، يوجهه إيمانه بالمسؤولية ويحثه دافع التبليغ على نشر الخير ونفع الغير ، فالصوفي "كالسحاب يظل كل شيء ، وكالقطر يسقي كل شيء (...) ويصفو به كل شيء"[5] ، فإذا تقرر هذا ، كان على اللغة عند الصوفية أن تتسم بالوضوح والبساطة ، وواقع الحال أن منجز كتاباتهم يحيل على العكس ، حيث تُظهر نصوصهم نمطا عجيبا في التأليف بين الكلمات والجمل ، وإغراق الألفاظ بالمعاني المكثفة ، فتكتظ المباني بالمعاني لتنفجر بالغرابة والدهشة وربما الغموض ، وتمارس أثر الصدمة والألم وربما الخيبة أحيانا ، وخاصة على المتلقي "الساذج" الذي يبحث عن المعنى اللغوي ولا يتجرأ على التأويل ، فيظل في الهامش يحوم حول النص/الرسالة ، معتقدا انخراطه في تواصل مثمر ، وهو إنما منفعل ومفعول به ، لا فاعل متواصل ومؤثر ، وهذا جانب من جوانب التواصل الصوفي الفوقي الذي يسيطر على الآخر ويغدق عليه من الحُجُبِ ما يؤسس به سلطته وجبروته.

---

[1] ساطع الحصري ، **ما هي القومية** ، دار العلم للملايين ، بيروت ، د.ت ، ص: 56.

[2] مصطفى سويف ، **دراسات نفسية في الإبداع والتلقي** ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، د.ط ، 2000 ، ص: 184.

[3] حكم أبي الحسن الحرالي: نصوص غير منشورة من أدب التصوف ، ، تقديم وتحقيق: جورج كتورة ، **الباحث** ، ع: 3, 1978 ، ص: 117.

[4] مُحَّد مبارك ، **استقبال النص عند العرب** ، المؤسسة العربية ، بيروت ، 1999 ، ص: 199.

[5] **الرسالة القشيرية** ، مصدر سابق ، ص:466-467.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- أبو حامد الغزالي ، الرسالة اللدنية ، مجموعة رسائل الإمام الغزالي ، راجعها وحققها: إبراهيم أمين مُحَمَّد ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، د.ط ، د.ت.
- أبو حامد الغزالي ، مشكاة الأنوار ومصفاة الأسرار ، شرح ودراسة وتحقيق: عبد العزيز عز الدين السيروان ، عالم الكتب ، بيروت ، ط:1 ، 1986.
- أبو الفيض مُحَمَّد بن عبد الكبير الكتاني ، ديوان الكتاني ، جمع وتقديم وتحقيق: إسماعيل المساوي ، منشورات مُحَمَّد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط:1 ، 2005.
- أبو القاسم القشيري ، الرسالة القشيرية ، تحقيق: عبد الحليم محمود ، ومحمود بن الشريف ، مطابع مؤسسة دار الشعب ، القاهرة ، د.ط ، 1989.
- ابن عربي الحاتمي ، رسائل ابن عربي ، تقديم وتحقيق: سعيد عبد الفتاح ، مؤسسة الانتشار العربي ، بيروت ، د.ط ، 2001.
- ابن عربي الحاتمي ، إنشاء الدوائر ، تحقيق: نيبرج ، مط. بريل ، ليدن 1919 ، أعادت طبعه دار: عالم الفكر ، القاهرة ، 1997.
- ابن عربي الحاتمي ، كتاب الحُجُب ، اعتنى به: عاصم إبراهيم الكيالي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ت.
- ابن عربي الحاتمي ، فصوص الحكم ، تحقيق: أبو العلاء عفيفي ، دار الكتاب العربي ، ط:2 ، 1980.
- ابن تيمية ، أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم (ت 728هـ) ، المعجزات والكرامات وأنواع خوارق العادات ومنافعها ومضارها ، تحقيق ودراسة: أحمد العيسوي ، دار الصحابة للتراث بطنطا ، مصر ، ط: 1 ، 1990.
- أبو بكر مُحَمَّد بن إسحاق الكلاباذي (ت 380هـ) ، التعرف لمذهب أهل التصوف ، ضبطه وعلق عليه وخرج آياته وأحاديثه: أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط:1 ، 1993.
- أبو عبد الله الساحلي المالقي الأندلسي (ت754هـ) ، بغية السالك في أشرف المسالك تحقيق عبد الرحيم العلمي ، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، المملكة المغربية ، 2003.

- أبو نصر السراج الطوسي (ت378هـ)، اللمع ، تحقيق وتقديم: عبد الحليم محمود ، وطه عبد الباقي سرور ، دار الكتب الحديثة بمصر ، ومكتبة المثنى ببغداد ، 1960.
- أدونيس ، الصوفية والسريالية ، دار الساقي ، بيروت ، ط:2 ، 1995.
- أحمد بن المبارك السجلماسي المالكي ، الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط:3 ، 2002.
- الحكيم الترمذي ، أبو عبد الله مُحَمَّد بن علي بن الحسن (ت بعد 318هـ)، ختم الأولياء ، وضع حواشيه: عبد الوارث مُحَمَّد علي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط: 1 ، 1999.
- حسن الشرقاوي ، معجم ألفاظ الصوفية ، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط:1 ، 1987.
- ساطع الحصري ، ما هي القومية ، دار العلم للملايين ، بيروت ، د.ت.
- شكري المبخوت ، جمالية الألفة (النص ومتقبله في التراث النقدي)، منشورات بيت الحكمة ، قرطاج ، تونس ، ط:1 ، 1993.
- عبد الرحمن بدوي ، شطحات الصوفية ، وكالة المطبوعات ، بيروت- الكويت ، ط: 3 ، 1978.
- عبد الرحمان بن مُحَمَّد العلوي المكناسي ابن زيدان (ت 1365هـ)، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس تحقيق: عبد الهادي التازي ، مطابع إديال ، الدار البيضاء ، ط:2 ، 1990.
- عبد الكبير العلوي المدغري ، مصادر العلوم في الفكر الصوفي ، درس ديني ألقي بحضرة الحسن الثاني رحمه الله بتاريخ 26 فبراير 1993.
- عبد الكريم الجيلي ، الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل ، تحقيق: أبو عبد الرحمن صلاح بن مُحَمَّد بن عويضة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط:1 ، 1997.
- علي حرازم ابن العربي برادة ، جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس أحمد التجاني ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر ، د.ط ، 1963.
- مُحَمَّد ماضي أبو العزائم ، الجفر ، دار الكتاب الصوفي- دار المدينة المنورة للطبع والنشر ، القاهرة ، ط: 3 ، 1990.
- مُحَمَّد مبارك ، استقبال النص عند العرب ، المؤسسة العربية ، بيروت ، 1999.

- مصطفى سويف ، دراسات نفسية في الإبداع والتلقي ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، د.ط ، 2000.
- نصر حامد أبو زيد ، هكذا تكلم ابن عربي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط:1 ، 2002.
- يحيى بن معاذ الرازي (ت258ه)، جواهر التصوف ، جمع وشرح وتعليق: سعيد هارون عاشور ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط:1 ، 2002.
- يوسف زيدان ، عبد الكريم الجيلي: فيلسوف الصوفية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر ، ط: 1 ، 1988.
- يوسف زيدان ، شرح مشكلات الفتوحات المكية لابن عربي ، الجيلي ، دار الأمين للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط:1 ، 1999.
- <u>الرسائل الجامعية:</u>
- أبو سالم عبد الله العياشي (ت1090ه)، رسائل أبي سالم العياشي ، جمع وتحقيق ودراسة: مُحَّد بزي ، أطروحة لنيل الدكتوراه ، مرقونة بخزانة كلية الآداب— ظهر المهراز- فاس ، (2004-2005).
- أبو سالم عبد الله العياشي (ت1090ه)، ماء الموائد ، تقديم وتحقيق: خالد سقاط ، أطروحة لنيل الدكتوراه مرقونة بخزانة الآداب والعلوم الإنسانية - ظهر المهراز- فاس ، (1998-1999).
- أحمد الوارث ، الأولياء ودورهم الاجتماعي والسياسي في المغرب خلال القرن السادس عشر ، رسالة جامعية مرقونة بخزانة كلية الآداب والعلوم الإنسانية - ظهر المهراز- فاس ، 1988.
- <u>الدوريات العلمية:</u>
- إبراهيم أبو شوار ، مقاربة تأويلية لقراءة علاقة العشق بالجنون في تصوف ابن عربي ، الوحدة ، العدد:49 ، السنة: 5 ، 1988.
- أبو الحسن الحرالي: نصوص غير منشورة من أدب التصوف ، ، تقديم وتحقيق: جورج كتورة ، الباحث ، العدد: 3, 1978.
- عادل أبو طالب ، الصوفية الشعرية في صالون الخليل بن أحمد الفراهيدي ، نزوى ، العدد: 15 ، يوليو 1998.

- عبد الإله بن عرفة ، في حوار أجرته معه مجلة عوارف حول جماليات عليا ، مجلة عوارف ، مط. ألطوبريس ، طنجة ، العدد: 2 ، 2007.
- عبد الله معصر ، بعض مظاهر الخطاب الصوفي المنقبي ، الإشارة ، العدد: 15 ، السنة: 2 ، فبراير 1999.
- عيسى فتوح ، الإلهام في الأدب ، دعوة الحق ، العدد: 2 ، السنة: 8 ، دجنبر 1964.
- مُحَمَّد علي الكردي ، الجنون في الأدب الفرنسي ، العقل واللاعقل أو خطاب الجنون عند ديدرو ، عالم الفكر ، العدد: 1 ، المجلد: 13 ، 1987.
- مُحَمَّد بن عبد الكبير الكتاني ، القصيدة التائية ، تقديم وتحقيق: عبد الوهاب الفيلالي ، المريد ، العدد:5 ، 1993 ، ع:6 ، 1994.
- الهاشمي ابن عجيبة ، قوانين صوفية ، تقديم وتحقيق: حنان الفاضلي ، دعوة الحق ، العدد: 395 ، أبريل 2010.
- وذناني بودواد ، اللغة الصوفية عند جمال الغيطاني ، حوليات التراث ، العدد: 6 ، 2006.